

محاضرة

ملازمة الاستغفار

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ راجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد؛ فقول الله عز وجل: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة]، عرفنا في دروسٍ مضت أن هذه الآية جمعت أصول الإيمان الكبار، وأسس هذا الدين التي عليها قيامه.

وعرفنا أيضاً أن هذه الآية فيها بيانٌ شافٍ وإيضاحٌ كافٍ لحقيقة الإيمان وحده، وأن الإيمان كما أنه يجمع أو يشمل عقائد الدين الباطنة فإنه كذلك يشمل أعماله الظاهرة، وأن الطاعات كلها إيمان، ولهذا قال: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وفي هذا - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذكرٌ لركنَي الإيمان؛ لأن الإيمان يقوم على ركنين: الاعتقاد، والعمل.

فذكرهما هنا معاً: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: السمع الذي يتضمن القبول، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: الطاعة التي تتضمن الانقياد والاستسلام، وهذه هي حقيقة الإيمان، حقيقة الإيمان قبولٌ واستسلام، ليس الإيمان القبول وحده؛ وإنما الإيمان قبول واستسلام: قبول للحق والهدى الذي جاءت به الرسل، وقناعة بصحته، ووثوق به، وطمأنينة له، ويضاف إلى ذلك الاستسلام، والانقياد، والامثال لله تبارك وتعالى ولما جاء عنه، فهذه هي حقيقة الإيمان.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم أتبع ذلك جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾، (غُفْرَانَكَ) هذه مصدرٌ ولها عامل، والعامل محذوفٌ وتقديره: أطلبُ أو أسألُ غفرانك.

وهنا ملاحظٌ يحسنُ بالمسلم أن يتنبه له، ألا وهو: الجمعُ في هذه الآية الكريمة بين الإيمان والاستغفار؛ فذكر الإيمان - أصوله وأعماله - في هذه الآية، ثم أتبع ذلك بالاستغفار في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿غُفْرَانَكَ﴾، فأتبع ذكر الإيمان بطلب الغفران.

ويأتي في النصوص الجمعُ بينهما - بين الإيمان والاستغفار -، كما أنه يأتي في النصوص كثيراً الجمع بين التوحيد والاستغفار؛ يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَوَّلَ لَيْلٍ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف]، فذكر الإيمان وذكر الاستغفار.

والعلماء يقولون في الجمع بينهما في النصوص: أن العبد مهما اجتهد في الطاعة، ومهما سعى في تكميل إيمانه وتتميم دينه، ومهما بذل من الجهد في الإتيان بالعمل على التمام والكمال - لا بُدَّ من النقص، لا بد من التقصير - مهما بذل الإنسان.

ولهذا لما جاء صديق الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَدْعُو اللَّهَ بِهِ فِي صَلَاتِي. قال: «قُلْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...»، يقول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: «قُلْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

أَرَشَدُهُ إِلَى هَذَا؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَهْمَا بَذَلَ وَمَهْمَا اجْتَهِدَ فِي تَمِيمِ الْإِيمَانِ وَتَكْمِيلِ الْعَمَلِ وَالِاتِّبَاعِ بِهِ عَلَى أَمِّ أَحْوَالِهِ وَأَعْلَى دَرَجَاتِهِ لَا يَدْفَعُهُ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَلَا يَدْفَعُهُ مِنَ النَقْصِ.

ولهذا يأتي الجمع بينهما.

وكذلك يأتي الجمع بين الاستغفار والطاعات التي هي من الإيمان، كالصلاة والحج وغيرها من الطاعات -على ما سيأتي بيانه وإيضاحه إن شاء الله.

هنا جمع بين الاستغفار والإيمان، وجاء في آيات أخرى عديدة وكذلك في أحاديث في السنة عن النبي ﷺ الجمع بين التوحيد والاستغفار؛ قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد]، فذكر التوحيد وذكر الاستغفار.

وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف]، فذكر التوحيد والاستغفار.

ويأتي هذا المعنى في آيات كثيرة، وأيضاً يأتي في أحاديث عديدة عن النبي ﷺ، بل جاء عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنَ الرَّحْفِ»، والفرار من الزحف كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام عدّه في جملة كبائر الذنوب، في الحديث الصحيح قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَيَّقَاتِ...» وذكر منها: الفرار من الزحف؛ فالفرار من الزحف كبيرة، وهنا قال: «وَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنَ الرَّحْفِ»؛ لأنه جُمِعَ بين الاستغفار والتوبة.

وسيأتي أيضاً -بإذن الله تبارك وتعالى- بيان دلالة الجمع بين الاستغفار والتوبة: عندما يُذكر الاستغفار مضمومًا إليه التوبة، وعندما يذكر أيضاً الاستغفار وحده دون أن تضم التوبة إليه.

وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في «سنن النسائي» بسند ثابت يقول: كنت أسمع رسول الله ﷺ يُكثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، أو قال: ما كنت أسمع أحداً يُكثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ». أكثر من رسول الله ﷺ. فكان يأتي على لسانه هذه الكلمة: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» وفيها الجمع بين الاستغفار والتوبة.

حديثنا عن جمع الاستغفار مع التوحيد، وقد مرَّ معنا بعض الأمثلة عليه، ومن الأمثلة عليه حديث سيد الاستغفار وهو في صحيح البخاري، قال ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» وهذا هو التوحيد، «خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ».

فجمع في هذا الدعاء الذي نعتة النبي ﷺ بأنه «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ» -والسيد هو المُقَدَّم على غيره- جمع فيه - بين التوحيد والاستغفار، وقال في تمامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَالَهُ إِذَا أَصْبَحَ وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهُ إِذَا أَمْسَى وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وهذا يدلُّنا على عظيم فضل هذا الدعاء المبارك واستحباب توظيفه في جملة أذكار المسلم في يومه وليلته. الشاهد أنَّ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمع فيه بين التوحيد والاستغفار.

أيضاً من النصوص التي جاء الجمع فيها بين التوحيد والاستغفار: الحديث القدسي المخرَّج في «سنن الترمذي» وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

فجمع في هذا الحديث بين الاستغفار والتوحيد في ذكر موجبات غفران الذنوب والنجاة من سخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعقابه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ فِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ من الجمع بين التوحيد والاستغفار في نصوص كثيرة وأدلة عديدة في القرآن والسنة -يقول رَضِيَ اللَّهُ -: لأن التوحيد وكلمة التوحيد إذا جاء بها العبد عن يقين وصدق محت الشرك كُلَّهُ -صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، سره وعَلَنه-، إذا جاءت أو صدرت من العبد عن صدق وثقة وإيمان فإنها تمحو الشرك، وإذا أتبعه بالاستغفار فإن الاستغفار يمحو الذنوب. كلمة التوحيد إذا صدرت عن صدق محت الشرك كله، والاستغفار يمحو الذنوب والخطايا التي هي ليست فروع الإيمان -ليست فروعاً للإيمان- وإنما هي فروع الكفر وإن لم تكن كفرًا. فإذا جمع بين التوحيد والاستغفار محاً التوحيد الشرك ومحاً الاستغفار الذنوب.

ولعله لهذا الأمر كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما ثبت في «صحيح مسلم» كان إذا جاءه الرجل وقد أسلم يعلمه أن يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»، إذا جاءه الرجل وقد أسلم

يعلمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»، فيعلمه الاستغفار -طلب المغفرة-؛ لأن العبد إذا جاء بالتوحيد محا توحيد شركه، وإذا جاء بالاستغفار محققا له محا استغفاره ذنوبه.

ولهذا يحتاج العبد حاجة ماسة إلى الإكثار من هاتين الكلمتين: كلمة التوحيد لا إله إلا الله، والاستغفار؛ يجمع بينهما.

ولهذا جاء في بعض الأذكار -كما مر قريباً- الجمع بين هاتين الكلمتين:
«مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، جمع بين الاستغفار والتوحيد.
وكذلك سيد الاستغفار جمع فيه بين الاستغفار والتوحيد، فالتوحيد إذا صدرت كلمته من العبد عن صدق وإيمان وتحقيق محت الشرك، وكلمة الاستغفار أيضاً إذا صدرت من العبد عن صدق وحسن التجاء إلى الله وصدق في الطلب والسؤال محت الذنوب؛ لأن حقيقة الاستغفار طلب محو الذنوب وسترها والعفو عنها والصفح.

واللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، ولهذا دعا عباده إلى حسن التوجه إليه وطلب الغفران منه مهما كانت الذنوب: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر]، ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: بما فيها الشرك بالله، متى؟
﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ يعني: توبوا إلى الله، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾: أقبلوا على الله بِرَحْمَةٍ تائبين نادمين منيبين، ولهذا قال في الآية التي بعدها: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾، فهذا في حق مَنْ تاب.

ولهذا لا يُشْكِلُ عليك مع هذه الآية قول الله في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ هناك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي آية الزمر قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، آية الزمر في حق مَنْ تاب، وآية النساء في حق مَنْ مات على ذلك -من مات على الشرك-: لا يغفره الله له، لكن من تاب من الشرك أو تاب من أي ذنب مهما كان فإن الله بِرَحْمَةٍ يَغْفِرُ له ذنبه، ولهذا قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وإذا كان عند العبد ذنوب عديدة من جملتها الشرك بالله فإنه يحتاج للخلاص من هذه الذنوب والنجاة منها -يحتاج- إلى التوحيد، ويحتاج إلى الاستغفار، يحتاج إلى التوحيد ليمحو شركه وكفره، ويحتاج إلى الاستغفار ليمحو ذنوبه وخطاياها.

ولهذا مر معنا قريباً الحديث الذي في «صحيح مسلم»: كان الرجل إذا أسلم يعلمه النبي ﷺ أن

يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»، يعلمه أن يستغفر.

فإذن؛ الجمع بين التوحيد والاستغفار في النصوص في غاية المناسبة، كما أن الجمع بينه وبين الإيمان أيضًا في غاية المناسبة، مثل ما معنا في هذه الآية المباركة: ﴿كُلُّ عَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة] ولاحظ هنا أيضًا أن (غُفْرَانَكَ) التي هي طلب المغفرة جاءت عقب إعلان السمع والطاعة والدخول في الإيمان والاستجابة لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والانقياد والامتثال، وفي هذا إشارة إلى أن العبد مهما كانت استجابته ومهما كان انقياده وامتثاله وطاعته لا يزال فيه من النقص والتقصير ما يحتاج معه إلى لزوم الاستغفار.

وهنا - معاشر الإخوة الكرام - إذا تتبعنا السنة وهدى النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نجد أن الاستغفار كان ملازمًا حياة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ملازمةً عجيبة، مع أنه ﷺ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. [الفتح].
جاء في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله ﷺ كان يصلي حتى تنفطر رجلاه، فكنت أقول له: تفعل ذلك - يا رسول الله - وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟».

الشاهد من الحديث: (وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، غفرت له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذنوبه المتقدمة والمتأخرة.

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا من خصائصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: غفرت له ذنوبه المتقدمة والمتأخرة، ومع ذلك تجد الاستغفار ملازمًا لحياته ملازمة عجيبة.

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعدون له في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، ويعدون له في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، وأبو هريرة - وكان كثير الملازمة لرسول الله ﷺ - يقول: ما رأيت أحدًا يكثّر من قول «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» من رسول الله ﷺ.

فكان يتكرر على لسانه الاستغفار تكررًا كثيرًا، ويرغب في ذلك في عموم المجالس وفي عموم الأوقات، يرغب في ذلك كثيرًا.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يرغب أن يختم المجلس بالاستغفار؛ كفارة المجلس أن يقول العبد:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، تكون كالطابع أو كالكفارة لمجلسه يختم بها مجلسه.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يرغب في ذلك، لو نظرت إلى استغفاره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الصلاة، استغفاره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاته، أين كان في صلاته ﷺ يستغفر؟ هذا السؤال، أريد جواباً عليه بحاضر البديهة، في أي موضع من الصلاة كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يستغفر؟ في أي موضع كان يستغفر؟ في أول الصلاة... اسمعوا: كان يستغفر في أول الصلاة، ويستغفر وهو راکع، ويستغفر وهو ساجد، ويستغفر بين السجدين، ويستغفر قبل أن يسلم، كل هذا ورد فيه الاستغفار في سنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصحيحة، وأيضا إذا سلم قال: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

يستغفر في أول الصلاة؛ لأن من جملة أدعية الاستفتاح -وقد ورد في أدعية الاستفتاح أنواع- من ضمنها- أدعية فيها الاستغفار وطلب الغفران والتنقية من الذنوب: «اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ ذُنُوبِي وَخَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، هذا من جملة الأدعية التي كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يستفتح بها.

في ركوعه وسجوده: لما نزل عليه قولُ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر] تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان يقول في ركوعه وسجوده: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ يتأول القرآن»، يقولها في ركوعه، ويقولها في سجوده، «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يطلب المغفرة في الركوع، ويطلب المغفرة في السجود.

وأيضاً ثبت عنه أنه يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ: دِقَّةً وَجِلَّةً، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، سِرَّهُ وَعَلَنَهُ»، والحديث في «صحيح مسلم».

في أول الصلاة وفي الركوع وفي السجود استغفار، وبين السجدين ماذا كان يقول؟

رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي.. يُكْرِّرُهَا بين السجدين.

وقبل أن يسلم صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أيضاً ثبت عنه في السنة أنه يستغفر، ماذا كان يقول؟ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»، ولاحظ أيضاً الجمع بين التوحيد والاستغفار، فيقول ذلك في تمام الصلاة.

وإذا سلم ثبت عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ ثَلَاثًا.

هذا الاستغفار الذي يصاحب المسلم في صلاته كلها: وهو قائم، وهو راکع، وهو ساجد، وهو بين السجدين، وهو في جلوس التشهد، قبل أن يسلم، وبعد أن يسلم - هذا كله يُدُلُّنا على ماذا؟ يدلنا على حاجة العبد مع الطاعة إلى الاستغفار، حاجته الشديدة مع الطاعة إلى ملازمة الاستغفار؛ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، مع ملازمة الإنسان للطاعة وعنايته بها ومحافظة عليها يحتاج إلى ماذا؟ يحتاج إلى الإكثار من الاستغفار.

ولهذا بعض السلف لفتَ هنا لفتة جميلة، أحد السلف لفت هنا إلى لفتة جميلة، فماذا قال؟ قال: إن العبد إذا قلَّتْ ذنوبه كثر استغفاره، وإذا كثرَتْ ذنوبه قل استغفاره.

لماذا؟ لأن الطاعة قرينة الاستغفار؛ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ﴾، فإذا قويت الطاعة في العبد وتمكنت منه ولازمها كثر استغفاره، وإذا قلت الطاعة فيه وقلت العبادة وكثرت الذنوب قل الاستغفار، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ﴾، ففيه تلازم بين الطاعة والاستغفار: كلما كثرت الطاعة في العبد كثر استغفاره.

انظر ذلك في أكمل الأمة طاعةً لله ﷻ: رسول الله ﷺ أكثر الناس استغفارًا - يعني لا يوجد من هو أكثر منه استغفارًا -، أبو هريرة رَأَى أَبَا بَكْرٍ وَرَأَى عُمَرَ، ورَأَى خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَى الْأَتْقِيَاءَ الصَّالِحَاءَ الْمَشْهُودَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، أَهْلَ الْعِبَادَةِ وَأَهْلَ الدِّيَانَةِ، رَأَى هَؤُلَاءِ، يقول: ما رأيت أكثر من رسول الله ﷺ في الإكثار من الاستغفار.

فالطاعة يلازمها الاستغفار، كلما قويت الطاعة في العبد شعر بحاجته إلى ماذا؟ حاجته إلى الاستغفار، كلما اعتنى بالطاعة وبالعبادة بالركوع بالسجود بالتذلل لله بالإقبال على الله كلما شعر بحاجته إلى المغفرة.

وأعيد مرة الثانية: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أكمل الأمة طاعة، جاء إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: عَلَّمَنِي دَعَاءً أَدْعُو اللَّهَ بِهِ فِي صَلَاتِي. قال: «قُلْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

رأينا - يا إخوان - مكانة الاستغفار في الصلاة.

أيضًا من مكانته في الصلاة: إذا دخل المسلم مع باب المسجد ماذا يقول؟ إذا دخل مع باب المسجد أي شيء يقول؟ «بِسْمِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ».

وإذا خرج قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»، يستغفر.

إذن؛ الآن كل ما كان العبد ملازمًا للصلاة على التمام والكمال كان ماذا؟ كان كثير الاستغفار، من يؤدّي صلاته على التمام والكمال يجد أنه في اليوم واللييلة فقط في الصلوات الخمس المكتوبة استغفر مرات كثيرة؛ إذا دخل المسجد، وإذا خرج منه، وهو قائم، وهو راکع، وهو ساجد، وهو بين السجدين، وقبل السلام، وبعد السلام، كم مرة استغفر في صلواته الخمس؟ وإذا كان يصلي النوافل، إذا كان أيضًا كثير الاستغفار..

سبحان الله! تجد الاستغفار يجري على لسانه جريًا، جاءه من ماذا؟ من جهة الطاعة؛ الطاعة هي التي تجلب الخيرات، ولهذا يقول بعض العلماء: إذا جاءت الطاعة تنادي أختها وتجلب أختها. ولهذا العبد كلما أقبل على الطاعة أقبل على هذه العبادة العظيمة عبادة الاستغفار.

أيضًا أنت ترى الاستغفار مع المسلم في صلاته هو أيضًا معه في طاعته الأخرى؛ قال الله ﷻ في شعيرة الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩]، طلب الله من العباد أو أمر العباد في تمام هذا النسك وتمام هذه الشعيرة أن يستغفروا الله تبارك وتعالى، يأتي الاستغفار مع المسلم إذا أتم حجه، لماذا؟ من الحكيم في ذلك: أنك مهما قدمت من جهد واجتهاد وبذل وعطاء لتكميل الحج لا بد من التقصير، والاستغفار يجبر النقص ويكمل العبد.

ويجب أن تعلم أن الاستغفار عبادة ينبغي أن تكون وظيفة للمسلم في حياته، يمكن أن تسمى هذه العبادة مثل ما سماها ابن رجب «وظيفة العمر»، وظيفة ملازمة لك طول عمرك، في حياتك كلها تلازمك، في الطاعات، في العبادات، في المجالس، في أوقاتك كلها تلازم الاستغفار وتكثر منه.

وسياتي معنا الإشارة إلى الفضائل والآثار والثمار المباركة التي يجنبها العبد إذا كان مكثراً من الاستغفار في حياته، والنصوص في هذا في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه في فضائل الاستغفار وآثاره كثيرة جدًا.

فهذا الآن الاستغفار في الحج.

عندما تتوضأ وتنتهي من الوضوء أيضًا يُشرع لك الاستغفار، وقد ثبت في السنة أن المسلم يشرع له أن يقول عقب انتهائه من وضوئه: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ».

وإذا خرج الإنسان من قضاائه لحاجته أيضًا يُشرع له الاستغفار، يُشرع له أن يقول كما جاء في السنة:

«غُفْرَانُكَ»، وهي اللفظة التي مرت معنا في الآية: ﴿غُفْرَانُكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا خرج من حاجته قال: «غُفْرَانُكَ».

العلماء هنا يتلمسون حكمة أو حكماً في الإتيان بالاستغفار بعد قضاء الحاجة:

بعض العلماء قال: لعل السر في ذلك أنك عندما استشعرت زوال الأذى من بدنك بقضائك للحاجة طلبت من الله ﷻ زوال أذى الذنوب بالاستغفار. يعني زال ذاك الأذى الذي في بدنك بقضائك له في مكان الحاجة وإخراجه في مكان الحاجة فخرجت متخففاً من هذا الأذى، فتطلب من الله ﷻ المغفرة لتتخفف من الذنوب كما أنك تخففت من هذا الأذى. قال ذلك بعض أهل العلم.

ومن العلماء من قال: أن نعمة إخراج الأذى نعمة عظيمة مهما شكرت الله ﷻ لا تبلغ شكر هذه النعمة؛ فناسب أن تستغفر - أن تقول: غفرانك - عندما يمن الله ﷻ عليك بقضاء هذه الحاجة، وهي نعمة عظيمة، نعمة عظيمة كبيرة جداً يمن الله ﷻ بها على عبده بزوال هذا الأذى منه، وإلا لو بقي محتبساً في جوف الإنسان لمات، لو بقي هذا الأذى في جوف الإنسان محتبساً لمات.

يقولون أن أحد الوعاظ التقى بأحد الملوك - أحد الأمراء - فطلب كأس ماء، فقال له: لو حبس عنك هذا الكأس من الماء ولا تعطى إياه إلا بنصف ملكك؟ قال: أدفع نصف ملكي وأشرب كأس الماء - لأن الإنسان بحاجة ماسة إلى الماء -. قال: إذا حبس في جوفك الماء لا يخرج إلا بنصف ملكك الباقي؟ قال: أدفع نص ملكي الباقي حتى يخرج.. فملك ذهب في شربة ماء!

فالشاهد أن خروج الأذى نعمة عظيمة جداً على العبد، مهما شكر الله ﷻ ما يبلغ هذه النعمة؛ فناسب أن يخرج من الأذى قائلاً: غفرانك.

هذا كله شواهد ودلائل إلى حاجة المسلم الماسة إلى الاستغفار في حياته كلها وفي أوقاته جميعها وفي مجالسه، يستغفر الله ويتوب إليه ويكثر من طلب المغفرة؛ فيكون سامعاً مطيعاً - أي: ممتثالاً لأمر الله، محققاً لما يأمره الله تبارك وتعالى به -، وفي الوقت نفسه يكثر من الاستغفار.

إذا تأملنا - أيها الإخوة - في الفضائل والآثار والثمار التي يجنيها المستغفر من استغفاره في دنياه وأخراه نجد أن ثمار الاستغفار لا عد لها ولا حد على العبد في دنياه وأيضاً في أخراه:

اقرأ ثمار الاستغفار في الدنيا في وصية نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

أين هذا؟ في الدنيا.

ولهذا يؤثر أن الحسن البصري رحمه الله جاءه رجل، كان في مجلس فجاءه رجل يشتكي الفقر يقول: أنا فقير، ما عندي شيء.. قال له: استغفر الله. فجاءه رجل آخر يشكو جفاف بستانه، قال له: استغفر الله. فجاءه رجل ثالث يشكو عدم الإنجاب، يقول: أنا عقيم ما أنجب.. قال: استغفر الله. وجاءه ثالث أيضًا يسأل حاجة، قال: استغفر الله. فأحد جلسائه قال: كل من يأتيك تقول له: استغفر الله؟! قال: لم أزد على كتاب الله، وقرأ الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝﴾.

هذه ثمار للاستغفار؛ الفقير، الذي لا ينجب، الذي يشكو من الهموم والآلام والأحزان، الذي يشكو ضعف قوته وضعف بنيته - يستغفر، يكثّر من قول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله وأتوب إليه.. يكثّر من هذه الكلمة، يرددها في حياته؛ فإن الاستغفار له بركة وله آثار وثمار على العبد في دنياه، وله أيضًا ثمار عظيمة له في أخراه.

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»، فطوبى قيل: هي الجنة. وقيل: طوبى المراد بها الثواب العظيم. وقيل: شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام.

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُلْقَى فِي صَحِيفَتِهِ -أو: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُلْقَى فِي صَحِيفَتِهِ- مَا يَسُرُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الاسْتِغْفَارِ» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فإذن؛ العبد يحتاج إلى الاستغفار، إلى ملازمة الاستغفار، إلى مداومة الاستغفار في حياته كلها وأيامه جميعها من أول حياته إلى آخره.

رأينا قبل قليل أن النبي عليه الصلاة والسلام يرشد من دخل الإسلام -إلى ماذا؟- إلى الاستغفار، وأيضًا في الأحاديث التي مرت معنا.. ولو تتبعنا لوجدنا في هذا الباب شيئًا كثيرًا فيه الإرشاد إلى الإكثار من الاستغفار، في المجالس، في الصلاة، في الحج، في العبادات كلها يحتاج العبد إلى أن يكثّر من الاستغفار -إلى ماذا؟- إلى آخر حياته.

يستحب لك أيضًا أن تختتم حياتك كلها بالاستغفار كما كان من نبينا عليه الصلاة والسلام؛ جاء في «صحيح البخاري» عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري، وكان ظهره على صدري»، قالت رضي الله عنها: «وسمعتة يقول» يعني وهو في تلك الحال، في اللحظات الأخيرة من حياته، قالت: سمعتة صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، هذه من أواخر

ما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، تقول عائشة: سمعتها منه. يعني في اللحظات الأخيرة، وظهره على صدرها، ومات بين سحرها ونحرها، وسمعتة يتلفظ بهذه الكلمات في أواخر حياته وفي الدقائق الأخيرة من حياته، يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى».

فكما أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يختم الطاعات والعبادات والمجالس التي كان يجلسها بالاستغفار ويلتزم الاستغفار في أيامه كلها، ختم حياته الشريفة وأيامه المباركة ختمها كلها -بماذا؟- بالاستغفار.

ولهذا قال العلماء: يستحب للمسلم -ماذا يستحب للمسلم؟- أن يختم حياته بالاستغفار.

هنا قد يقول قائل: أنا لا أدري متى أموت حتى أختم حياتي بالاستغفار.

الجواب على ذلك: أَكْثَرُ مِنَ الاستغفار، ولتزم الاستغفار في حياتك ومجالسك وفي أوقاتك؛ فإذا لازمت الاستغفار في حياتك خُتِمَ لك به، كما أنك إذا لازمت كلمة التوحيد في حياتك ختم لك بها، وإذا أكثر العبد من شيء ختم له به، والتثبيت من الله والتوفيق من الله ﷻ.

ولهذا -والعياذ بالله- مَنْ يَدْمُنُونَ سَمَاعَ الْأَغَانِي بَعْضُهُمْ يُسْمَعُ وَهُوَ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ يَرُدُّ بَعْضُ الْأَغَانِي، حتى إن بعض الآباء اشتكى يوماً أن ابنه صار له حادث وكان في سيارة يستمع إلى الأغاني يقول: كنت أَلْقَنُ الشَّهَادَةَ وَيُرَدِّدُ الْأَغْنِيَةَ الَّتِي كَانَ يَسْمَعُهَا فِي السَّيَارَةِ إِلَى أَنْ مَاتَ.. وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يقول:

فَعِشْنَا عَلَى سُنَّةِ الْمُصْطَفَى وَمَاتُوا عَلَى تَبَتُّنَاتِنَا

إذا كان الإنسان حياته مشغولة باللهو وبالباطل وبالأغاني وباللغو و.. إلخ، فإن ما عاش عليه يُخْتَمَ له به، كما أن من عاش على التوحيد وعلى الاستغفار يُخْتَمَ له به.

بعض الكبار في لحظاته الأخيرة من حياته يصيبه خرف قبل أن يموت، وربما يطول الخرف أياماً، بعض الناس يمنع الزيارة عن قريبه الكبير لأن خرفه -والعياذ بالله- فيه كلمات بذئية وكلمات سيئة فما يريدون أحداً يسمعه، وهذا يحصل -يا إخوان-، يحصل لأن هذه الكلمات البذيئة والكلمات السيئة كانت شغله الشاغل في حياته، ولهذا في لحظاته الأخيرة ما على لسانه إلا تلك الكلمات التي كان يرددها في حياته، وآخرون في لحظاته الأخيرة يسمع منه كلمات طيبة.

سمعت عن رجل من العباد من الصالحاء حدثني عنه ابنه يقول: دخل في غيبوبة شهور، ثم قال لي

الطبيب: إن والدك عنده شيء من الصُّحُو؛ إذا تريد أن تكلمه اذهب إليه الآن.. وهو في غيبوبة دامت شهورًا، يقول: فأنت عنده وناديت بصوت عالٍ؛ لأن سمعه ضعيف، أناديه: يا أبي، يا أبي.. فقال لي: هاه، أذن؟ أذن؟!.. يقول: بس هذه الكلمة.. قال: الذي في باله الأذان؛ لأن حياته ماشية على الأذان، على الاستغفار، على الذكر، على الدعاء.. فمن كان كذلك يُختم له بمثل هذه الخواتيم الطيبة.

إذن؛ المسلم مطالب أن يكثر من كلمة التوحيد في حياته، وأن يكثر من الاستغفار في حياته؛ حتى يمن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه بالخاتمة الطيبة.

من المواقف الجميلة التي مرت علي في هذا الباب: في كتب التراجم في ترجمة عبد الرحمن بن أبي حاتم الإمام المعروف المحدث، يقول أحد تلاميذه أبو زرعة الرازي يقول: لما حضرته الوفاة جئت أنا وأحد تلاميذه عنده وأردنا أن نذكره بالحديث: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) دَخَلَ الْجَنَّةَ».. يقول: فجلسنا عنده وهو يحتضر في اللحظات الأخيرة.. يقول: فما أحببنا أن نخاطبه مباشرة.. يقول: فجلسنا أمامه كأننا نتذكر الحديث، فقلت لصاحبي: حدثنا بحديث فلان.. يقول: فبدأ صاحبي يقول: حدثنا فلان عن فلان.. لما انتصف في الإسناد ارتجَّ عليه فما استطاع أن يكمل.. يقول: فبدأت أنا والموقف كان صعبًا، فبدأت بالإسناد: حدثنا فلان عن فلان.. والإمام عندنا يحتضر.. يقول: فما استطعت أن أكمل.. يقول: فالتفت إلينا وهو يحتضر، قال: لعلكم تريدون حديث فلان؛ حدثناه فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)»... يقول أبو زرعة: فخرجت روحه مع الهاء قبل أن يقول: «دَخَلَ الْجَنَّةَ»!

خرجت روحه مع الهاء، يعني قبل أن يتم بقية الجملة في الحديث، «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)»... يقول: فخرجت روحه مع الهاء قبل أن يقول: «دَخَلَ الْجَنَّةَ».

فالشاهد أن المسلم مطالب أن يلازم الاستغفار، ويلازم الإيمان، ويلازم التوحيد، ويكثر من هذه الكلمات في حياته؛ حتى يحظى بالخاتمة الطيبة، والخاتمة السعيدة، والنهاية المباركة التي هي خاتمة على التوحيد وعلى الاستغفار.

عودًا على بدء:

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

على ضوء ما تقدّم، أخذنا فائدة من هذه الآية جليّة، فائدة ينبغي أن تكون منهجًا للمسلم في حياته؛

ما هي؟ ماذا تلخص لكم؟

فائدة جلية: أن يكون العبد في حياته على الإيمان، على الطاعة، على الاستجابة لله تبارك وتعالى والامثال لأمره، على الملازمة للاستغفار؛ ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، يكون على هذا المنهج مستمراً مستديماً ينتظر المصير الذي هو المرجع إلى الله تبارك وتعالى، مع مداومته على الإيمان، ومحافظته على الإيمان، ومحافظته على الطاعة، ومحافظته على طلب المغفرة، إلى أن يُختم له بالخاتمة الطيبة.

فهذه -يا إخوان- فائدة عظيمة جلية تعتبر منهج حياة للمسلم نستفيد منها من هذه الآية المباركة. لو قيل: ما منهج حياة المسلم؟ ما هو المنهج السليم في حياة المسلم (على ضوء هذه الآية المباركة)؟

نقول: المنهج هو أن يقيم المسلم نفسه على الإيمان: محققاً أصوله، متمماً أركانه، قائماً بأعماله؛ ﴿سِعِينَا وَأَطَعْنَا﴾. ملازماً للاستغفار، مستديماً على هذه الحال إلى أن يلقاه مصيره ويلقى ربه تبارك وتعالى. هذه الحياة الطيبة.

ما الثمار؟

الثمار لا حد لها ولا عد؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نح] أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون [فصلت].

قبل أن أختم درس أو حديث هذا اليوم أشير إلى فائدة كنت وعدت بالحديث عنها وفات الحديث، وهي أنه يأتي في بعض النصوص الجمع بين الاستغفار والتوبة. ذكرنا الاستغفار والتوحيد، والاستغفار والإيمان.

يأتي في بعض النصوص الجمع بين الاستغفار والتوبة، ومر معنا نصوص عديدة جمع فيها بين الاستغفار والتوبة، يقول ابن القيم رحمه الله في بيان وجه الجمع بينهما -يقول:

الذنوب نوعان: ذنب مضى ووقع وانتهى، فهذا النوع من الذنوب تطلب من الله ﷻ أن يغفره لك، بأن يستره، وأن يمحوه، وأن يعفو عنك فعلك له ووقوعك فيه. والذنوب الآخر: ذنوب آتية وأعمال آتية يخشى الإنسان أن يقع فيها وأن يمارسها فيما يستقبل من أيامه ومن حياته، فالتوبة عقد وعهد منك مع

اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَجَانِبَ الذُّنُوبَ، عَزَمْتُ مِنْكَ عَلَى الْبَعْدِ عَنْهَا.

فإذا قلت: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.. في هذه الجملة طلبت من الله ﷻ أَنْ يَمْحُو مِنْكَ ذُنُوبَكَ الْفَائِتةَ، وعزمت بينك وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تَبَاعِدَ الذُّنُوبَ وَأَنْ تَجَانِبَهَا؛ فإذا كنت بهذه الصفة وعلى هذه الحال -تلازم الاستغفار وتلازم التوبة- فأنت على خير.

ولهذا جاء في الحديث الذي في الصحيح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ. ثُمَّ أَذْنَبَ مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ»، ثم في المرة الثالثة قال: «أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، قال الله: «عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ»، ثم قال في الحديث: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ».

ما المراد هنا بقوله: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ»؟

يعني ما دام العبد ملازمًا للاستغفار عاقدًا العزم مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَتَّبِعَ مِنَ الذُّنُوبِ؛ أنت إذا عقدت العزم مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تَتَّبِعَ مِنَ الذُّنُوبِ لَا تَكُونُ مَعْصُومًا بِذَلِكَ، أليس كذلك -يا إخوان-؟

إذا عقدت العزم مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ لَا تَفْعَلَ الذُّنُوبَ لَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْصُومًا، أنت عرضة للذنوب؛ «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ».

فإذا أمرتك النفس الأمارة بالسوء أو الشيطان سَوَّلَ لَكَ فَوَقَعْتَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْتَصِمَ وَأَنْ تَتَلَزَمَ وَأَنْ تَعُودَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَوْدًا سَرِيعًا؛ حَتَّى لَا تُهْلِكَ الذُّنُوبُ.

لست مَعْصُومًا؛ الْخَطَأُ حَاصِلٌ، الذَّنْبُ حَاصِلٌ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

هذه الأحاديث فيها الترغيب في ماذا؟

بعض الناس يفهمها فهمًا أعوجًا: يظن أَنَّهَا تُرَغِّبُهُ فِي الذُّنُوبِ!

حاشا وكلا؛ هذه فيها ترغيب في الاستغفار، في التوبة:

أنت مهما اجتهدت في البعد عن الذنوب لا بد أن تخطئ، أنت مطالب أن تتباعد عن الذنوب لكن مهما اجتهدت ومهما حاولت لا بد من الخطأ، إذن ماذا عليك؟ عليك أن تلازم الاستغفار والتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأنت ما دمت على هذه الحال فأنت على خير عظيم، ما دمت

على هذه الحال -تستغفر، وتتوب، وتنب إلى الله، وتلازم الاستغفار- فأنت على خير عظيم.
رأينا قبل قليل من يحافظ على سيد الاستغفار في أذكار الصباح والمساء مع استحضر معانيه
وتحقيق دلالاته إذا مات قبل أن يمسي دخل الجنة، وإذا مات قبل أن يصبح دخل الجنة، إذا كان محافظاً
على هذه الدعوة المباركة محققاً لها في حياته كلها.

هل ورد ما يدل على أن يقول المسلم كل ليلة: غُفْرَانُكَ؟ ورد أم لم يرد؟

«مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»، وأنت إذا قرأت الآية وقلت: ﴿غُفْرَانُكَ﴾
ينبغي أن تتبه هنا أنك تطلب المغفرة، لست فقط تقرأ كلاماً يُستحب أن يُقرأ، والعلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ
يُنَبِّهُونَ على أن مثل هذه الأشياء ينبغي أن يستحضر المسلم أنه يدعو، فإذا قلت: ﴿غُفْرَانُكَ﴾ -وأيضاً
الدعوات التي سيأتي الكلام عليها إن شاء الله في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ - هذه دعوات
تستحضر أنك تدعو، فقولك: ﴿غُفْرَانُكَ﴾ هذا من الدعوات التي فيها طلب المغفرة التي يُستحب
للمسلم أن يقولها كل ليلة، كما هي في هذا الحديث قال: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ
كَفَتَاهُ»، فالمسلم يستحب له أن يقرأ هاتين الآيتين وفيها قوله: ﴿غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة].
من الفوائد التي استفدناها في حديث اليوم: أن الاستغفار له ملازمة عجيبة للطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾
﴿غُفْرَانُكَ﴾، فهذا يدل على أنه فيه ملازمة عجيبة بين الاستغفار والطاعة، بمعنى أن الطاعة كلما قويت -
ماذا؟- زاد الاستغفار.

في هذا الموضع نقلت لكم كلمة جميلة ومهمة عن أحد السلف، فمن يذكرها من الإخوة؟ نقلت
لكم كلمة جميلة ومهمة عن السلف في هذا الموضع، في بيان حال الناس مع...
نعم، قال بعض أهل العلم: أن العبد إذا كثرت طاعاته وقلت ذنوبه كثر استغفاره، وإذا كثرت ذنوبه
وقلت طاعاته قل استغفاره.

فكلما قويت الطاعة في العبد وملازمة العبد لها وحرصه عليها زاد فيه الاستغفار، يكفيك شاهداً
على هذا الأصل -أو على هذه القاعدة- مجيء الاستغفار في طاعة الصلاة، هذه العبادة العظيمة وكيف
أن الاستغفار يتكرر معك في صلاتك تكررًا كثيرًا: في قيامك، وفي ركوعك، وفي سجودك، وفي جلستك
بين السجدين، وقبل أن تسلم، وبعد أن تسلم، على ما جاءت به سنة النبي الكريم صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ.

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

اللَّهُمَّ اغفر لنا، ولوالِدِينَا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأَمْوات.

أيضاً لا يفوتني هنا أن أُنبِّه هنا على فائدة مهمة وعظيمة جداً في موضوع الاستغفار: كما أنه يستحب لك أن تكثر من طلب الغفران لنفسك، يستحب لك أن تطلب المغفرة لإخوانك المسلمين، وانتبه لهذا..

مر معنا الآية: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أتى بجنائزته يصلي عليها ماذا كان يقول؟ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا»، أمامه جنازة واحدة ويستغفر للأحياء والأَمْوات، والصغير والكبير، والذكر والأنثى؛ فيستحب أن يستغفر المسلم لنفسه وأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأَمْوات.

وفي القرآن قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، ﴿اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾.

الملائكة يستغفرون أيضاً للذين آمنوا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ماذا تنال من الثواب إذا قلت في استغفارك: اللهم اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأَمْوات؟

إذا قلت: اللَّهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأَمْوات.. كم تُحصِّل من الثواب؟ جاء في «معجم الطبراني» بإسناد ثابت عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ اسْتَغْفَرَ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَسَنَةٌ».

إذا قلت: اللَّهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأَمْوات.. جملة ما تكون سطر واحد إذا كتبت، لكن كم لك بها من حسنة!

احسب من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بعدد المسلمين والمسلمات، لك بكل واحد من هؤلاء حسنة، هي مليون أو مليونين أو ثلاثة أو أربعة؟! عدد لا يحصيه إلا الله ﷻ.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يُوقى شَحَّ نَفْسِهِ، لا يُحَجَّرَ واسِعاً؛ بل يدعو دائماً لنفسه ولإخوانه

